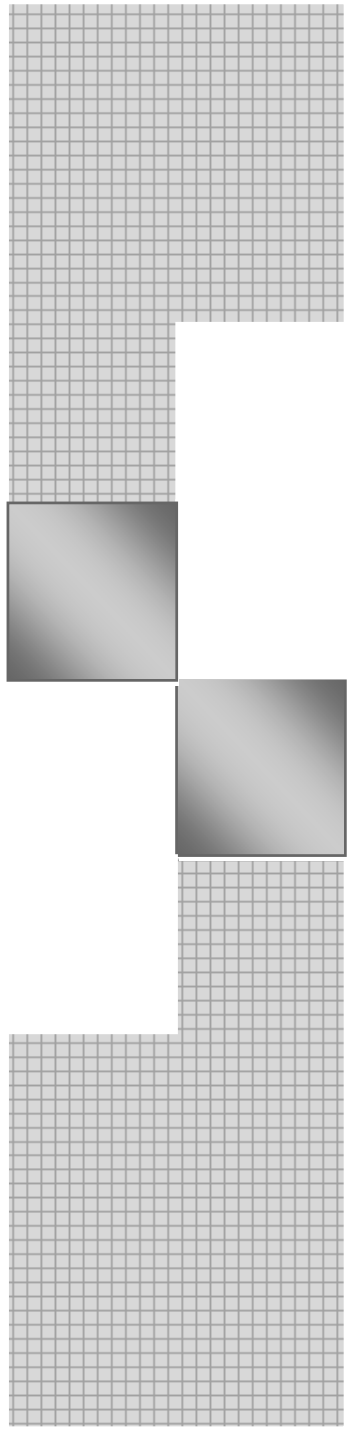

الفصل الثالث

علم البديع

الفصل الثالث

علم البديع

البديع لغةً: بَدَعَ الشيءَ يَبْدَعه بَدعاً وابتَدَعَهُ: أنشأهُ وَبدأهُ، وأبدعت الشَّيءَ اخترَعَهُ لا على مِثالٍ سابقٍ... والبَدِيعُ من أسماءِ الله تعالى، والبديعُ الجَديد[1].

البديع اصطلاحاً: هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة[2].

وقد أشار العلماء إلى أنَّ أول من ذكر مصطلح البديع هو الشاعر مسلم بن الوليد[3] وذكره الجاحظ في قوله: «والبديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم على كل لغة وأربت على كل لسان»[4].

وقد شاع هذا اللون في الأدب مما حدا بالخليفة والشاعر العباسي ابن معتز إلى تأليف كتابه البديع الذي قال فيه: «البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين»[5].

---

(١) لسان العرب، مادة (بدع).

(٢) الإيضاح، ص٣١٧.

(٣) ينظر: الأغاني: ٣١/١٩، العمدة: ١٣١/١.

(٤) البيان والتبيين: ٥١/١.

(٥) البديع، ص٥٨.

والناظر في كتاب البديع يرى أن فنونه تشمل علم البيان وبعض قضايا علم المعاني، وبذلك لم يكن مصطلح البديع يتطابق مع مفهومنا الحالي فقد كان يطلق البديع على البلاغة كلها، وهذا ما ذكره ابن قدامة بن جعفر[1] وعبد القاهر الجرجاني[2] في نظريته المعروفة بـــ(نظرية النظم) التي يكشف فيها عن الإعجاز القرآني بالإفادة من النظرة الشمولية لعلوم البلاغة.

ويُعدُّ القزويني أول من عرف علم البديع -ذكرنا التعريف مسبقاً- والسكاكي أول من قسم فنون البديع؛ إذ سمّاها (محسنات) وجعلها على ضربين:

ضرب يرجع إلى المعنى، وضرب يرجع إلى اللفظ[3] وقد تناول رشيد الخطيب أنواعاً متعددة من هذا العلم في تفسيره منها:

١- المشاكلة:

المشاكلة لغةً: الشبه والمثل، وقد تشاكل الشيئان وشاكل كل واحد منهما صاحبه[4].

وقال ابن فارس عليها: «الشين والكاف واللام معظم بابه المماثلة. تقول: هذا شِكْلُ هذا، أي: مثله. ومن ذلك يقال: أمر مُشكل، كما يقال أمر مشْتَبِهٌ، أي: هذا شابه هذا، وهذا دخل في شكل هذا»[5].

---

(١) ينظر: نقد الشعر، ص٢٤.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز، ٤٠-٤٥، وأسرار البلاغة: ١-٤.

(٣) الإيضاح، ص٣١٧، وينظر: مفتاح العلوم، ص٢٠٠.

(٤) لسان العرب، مادة (شكل).

(٥) معجم مقاييس اللغة، مادة (شكل): ٣/٢٠٤.

المشاكلة اصطلاحاً: هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً[١]. وسماه الرماني بالمزاوجة[٢]. ويبدو أن الدكتور أحمد مطلوب أرجع بدايات نشوء مصطلح المشاكلة إلى أبي علي الفارسي بقوله: «ولعل أبا علي الفارسي كان أول من أطلق عليه اسم المشاكلة»[٣].

ومن المحدثين من يرى أنَّ المشاكلة كلمة تتردد في العبارة مرتين، مع إمكان استبدالها بغيرها في المرة الثانية، ولكن بقيت ليكتمل الإيقاع الموسيقي الناتج عن الترديد، فضلاً عن أن معناها مازال قادراً على العطاء في العبارة التي وردت فيها[٤].

ولقد عني الشيخ رشيد الخطيب بها عناية واضحة لما فيها من دفع شبهة قد ترد في نسبة الألفاظ التي لا تليق بذات الله كالنسيان، والمكر، والخديعة، وما إليها فهو لون بديعي، وهو كذلك لدى الشيخ، إذ عدَّ هذا اللون من الكلام من فنون البديع وقد نص على ذلك في بعض المواضع فقال: (هذا من البديع)[٥].

ومن الآيات القرآنية التي ذكر رشيد الخطيب أنَّ فيها مشاكلة مما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ**﴾ [الحج: من الآية ٦٠]، قال رشيد: «وإنَّما سمي التحرش من الكفار

---

(١) مفتاح العلوم، ص٤٢٤، والتلخيص، ص٣٥٦.

(٢) ينظر: النكت في إعجاز القرآن، ص٩٩.

(٣) معجم المصطلحات البلاغية: ٢٨٥/٣، وينظر: الحجة: ٢٣٦/١.

(٤) ينظر: البلاغة (تأصيل وتجديد)، ص١٠١.

(٥) أولى ما قيل: ٩٣/٤ و١٩١/٤.

في بالمؤمنين عقاباً أيضاً، للازدواج والمشاكلة»[1].

ونرى هنا أنَّ رشيد الخطيب أطلق اسم الازدواج أيضاً على المشاكلة.

وهذا ما ذكره البيضاوي قائلاً: «ولم يزد في الاقتصاص وإنما سمي الابتداء بالعقاب الذي هو للازدواج أو لأنه سببه»[2]، فهو لم يصرح بلفظ المشاكلة بل الازدواج.

وسماه الزمخشري الملابسة قائلاً: ««ذلك ومن عاقب» تسميته الابتداء بالجزاء لملابسته له من حيث إنَّه سبب وذلك مسبب عنه كما يحملون النظير على النظير، والنقيض على النقيض للملابسة»[3]. وتبعه النسفي والنحاس[4].

وأطلق الشوكاني والآلوسي لفظ المشاكلة[5].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًا﴾ [يونس: من الآية ٢١]، قال رشيد: «أي: أعجلُ عقوبة وأسرع عقاباً من سرعتكم في انقلابكم عن الحق. وفي تسمية العقوبة مكراً، مشاكلة لمكرهم وهذا من البديع»[6].

وهذا مما ذهب إليه الشوكاني بقوله: «... وتسمية عقوبة الله سبحانه مكراً من باب المشاكلة»[7].

---

(١) المصدر نفسه: ٦/١٣٩-١٤٠.

(٢) أنوار التنزيل: ٤/١٣٧.

(٣) الكشاف: ٣/١٦٨.

(٤) ينظر: مدارك التنزيل: ٣/١١٠، ومعاني القرآن: ٤/٤٢٩.

(٥) ينظر: فتح القدير: ٣/٦٦٥، وروح المعاني: ١٧/١٨٩.

(٦) أولى ما قيل: ٤/١٩١٠، وينظر: إرشاد العقل السليم: ٤/١٣٣.

(٧) فتح القدير: ٢/٦٢٨.

وذكر الرازي أنَّه من المقابلة[1].

وقوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ [التوبة: من الآية ٦٧]، قال رشيد: «أي: حرمهم من فوائد ذكره وشكره وحسن عبادته. فيه مشاكلة في اللفظ»[2].

وقال الزركشي: «وهو مجاز حسن، فالعرب تسمي الجزاء على الفعل باسم الفعل»[3].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ [المؤمنون: من الآية ٧٢]، قال رشيد في تفسير الآية: ﴿...أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا﴾ أي: ضريبة على الرؤوس فيتهموك بأن تطلب بهذه الدعوى والدعوة نيل ثروة أو رياسة، كلا. وإنَّما تطلب الأجر من ربك ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ﴾ وهو رزقه لك في الدنيا، وثوابه في الآخرة. وعبر عن هذا بالخراج، للمشاكلة»[4].

ولم أجد من المفسرين من قال بهذا الرأي.

وقد أكثر رشيد من ذكر هذا النوع في تفسيره[5].

٢- اللف والنشر:

جاء في اللسان: «اللَّلف: الصّنفُ من النَّاس من خير أو شر، والتفَّ

---

(١) التفسير الكبير: ١٧/٥٤.

(٢) أولى ما قيل: ٤/١٥١.

(٣) البرهان، ص٨٦٢.

(٤) أولى ما قيل: ٦/١٦٠.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ١/١١٦، و٤/٩٣، و٤/٢٣٨، و٥/١٥٧، و٧/٨٢.

الشيء تجمّع وتكاثف، والنشرُ، أنشر الله الرِّيح: أحياها بعد موت وأرسلها نشراً ونشراً»[1].

وفي الاصطلاح: فقد عرفه السكاكي قائلاً: «هو أن تلف بين شيئين في الذكر ثم تتبعهما كلاماً مستقلاً على متعلق بواحد وبآخر من غير تعيين، ثقة بأنَّ السامع يرد كلاً منهما إلى ما هو له»[2]. وقولهم من غير تعيين أي: من غير أن يعين لشيء مما ذكر أولاً ما هو له مما ذكر ثانياً، وهذا قيد في التعريف يخرج ما كان معيناً، فهو من باب التقسيم، وليس من هذا الباب. وترك التعيين يكون من أجل الوثوق بأنَّ السامع يرد إلى كل ما هو له بناءً على القرينة[3]. وقد عرَّفه كثير من البلاغيين منهم الحموي بقوله: «وهو أن نذكر شيئين فصاعداً إما تفصيلاً فتنص على كل واحد منهما، وإما إجمالاً فتأتي بلفظ واحد يشتمل على متعدد إلى العقل ردَّ كل واحد إلى ما يليق به»[4].

وقسمه القزويني على نوعين: الأول: أن يكون النشر على ترتيب اللف، والثاني: أن يكون النشر على غير ترتيب اللف[5].

وذكر الشيخ هذا اللون البديعي في قوله تعالى: ﴿ **وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٨١]، قال رشيد: «وكلتاهما تفصيل لإجمال قوله تعالى: ﴿ **مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىٌ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ**

(١) لسان العرب: مادة (لف) و(نشر).

(٢) مفتاح العلوم، ص٦٦٢.

(٣) خزانة الأدب: ١٤٩/١.

(٤) دراسات منهجية في علم البديع، للشحات محمد أبو شيبة، ص٢٢٣.

(٥) التلخيص، ص٣٦١، والإيضاح، ٣٣٣.

﴿ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٨]، وقد جاء هذا التفصيل على طريقة اللف والنشر المفرّق، ليكون مطلع الكلام ومقطعه من المهتدين[١].

لم أجد من المفسرين من ذهب إلى هذا الرأي.

وقد يلمح الشيخ لفاً من دون تفريق فيجد فيه صورة من صور الإيجاز القرآني، على نحو مما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ ﴾ [الروم: ٢٣]، قال رشيد: «وفيه لف واحتباك على نهج إيجاز القرآن»[٢].

٣- المقابلة:

المقابلة لغةً: جاء في اللسان: قابل الشيء مقابلة وقبالاً: عارضه، والمقابلة المواجهة والتقابل مثله[٣].

وفي الاصطلاح: فقد اختلف البلاغيون في المقابلة فمنهم من أدخلها في باب المطابقة[٤]، ومنهم من عدَّها باباً بذاتها[٥]، وعرفها الكثير من البلاغيين[٦]، إذ قال فيها أبي الأصبع المصري أنَّها عبارة عن: «توخي المتكلم

---

(١) أولى ما قيل: ٤/٧٠.

(٢) المصدر نفسه: ٧/٥٥، وينظر: منهج رشيد الخطيب الموصلي في تفسر القرآن الكريم، ص٢٥٠.

(٣) ينظر: لسان العرب، مادة (قبل).

(٤) ينظر: مختصر المعاني، ص٢٦٧.

(٥) ينظر: نهاية الإيجاز، ص١١١، ومفتاح العلوم، ص٢٠٠.

(٦) ينظر: كتاب الصناعتين، ص٣٣٧، وجوهر الكنز، ص٨٥، والإيضاح، ص٣٥٣، وخزانة الأدب: ١/١٢٩.

ترتيب الكلام على ما ينبغي، فإذا أتى بأشياء في صدر كلامه أتى بأضدادها في عجزه على الترتيب بحيث يقابل الأول بالأول والثاني بالثاني لا يخل من ذلك شيء في المخالف والموافق، ومتى أخل الترتيب كان الكلام فاسد وقد تكون المقابلة بغير الأضداد»[1].

وعرَّفها أبو هلال العسكري بقوله: «إيراد الكلام في مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة والمخالفة»[2]. وجميع التعريفات تكاد تكون متفقة في المعنى العام.

وقد أشار رشيد الخطيب إلى المقابلة في عدد من الآيات، ولم يفرق بين الطباق والمقابلة، على حين فرَّق أكثر البلاغيين، فقد عرف السكاكي الطباق بأن تجمع بين متضادين، أما المقابلة فهي بين شيئين متوافقين أو أكثر وبين ضربهما[3].

واختيار الشيخ لمصطلح (المقابلة) مبني على واقع الدلالة، إذ إنَّ أحد اللفظين يقابل الآخر في معناه. أما الطباق فمصطلح تعارف عليه البلاغيون[4].

فقال في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢١/٢٣]: «ولا يخفى ما في مقابلة عالية بدانية من الإبداع البليغ»[5].

---

(١) تحرير التحبير، ص١٧٩.

(٢) كتاب الصناعتين، ص٣٣٧.

(٣) مفتاح العلوم، ص٦٦٠، وينظر: منهج الخطيب الموصلي في تفسير القرآن الكريم، ص٢٤٥.

(٤) منهج رشيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن الكريم، ص٢٤٥.

(٥) البرهان، ص٩٠٧.

وهذا في اصطلاح عموم البلاغيين طباق، قال الزركشي: قابل بين العلو والدنو»[1].

ومن المقابلة ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ [التوبة: ٨٦]، قال رشيد الخطيب: «ثم ذكر حال المؤمنين ومصيرهم في مقابلة حال المنافقين ومصيرهم على نهج القرآن في المقابلة فقال: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ ﴾ [التوبة: من الآية ٨٨]، التي هي ثمرات الإيمان...»[2]. فهذا من مقابلة جملة بجملة.

و لم أجد من المفسرين من ذهب إلى هذا الرأي.

وقد يقابل الشيخ بين جمل متعددة لتشمل مشهداً متكاملاً بإزاء مشهد آخر، وهذا من خصائص القرآن، إذ يقابل مثلاً مشاهد بمشاهد النعيم في كثير من نصوصه، جرياً على نهجه وأسلوبه في الترغيب والترهيب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴾ [الكهف: من الآية ٢٩] وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ

(١) أولى ما قيل: ٨٧/٩.

(٢) أولى ما قيل: ١٥٩/٤-١٦٠، وينظر: ٦٩/٤-٧٠.

﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣٠-٣١]، قال رشيد: «وهذه الجمل مقابلة لنظيرها السابق في حق الكافرين[١]. وهذا ما ذهب إليه الرازي[٢].

وقد أكثر رشيد الخطيب من ذكر المقابلة في تفسيره[٣].

٤- الالتفات:

لغةً: لَفَتَ وَجْهَهُ عَن القَومِ: صَرَفَهُ، والتَفَتَ التفاتاً... والتَفَتَ إليه صَرَفَ وجههُ إليه، ويقال: لَفَتَ فُلاناً عن رأيه، أي: صَرَفْتَه، ومنه الالتفات[٤].

وفي الاصطلاح: عرَّف البلاغيون الالتفات واختلفوا في تسميته[٥]، فمنهم من سماه الاعتراض والرجوع والصرف والانصراف والالتفات، وكذلك أطلقوا عليه شجاعة العربية.

ولعل أول من أطلق عليه تسمية الالتفات هو الأصمعي[٦]، وقد أوضحه ابن الأثير بقوله: «وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله فهو يقبل بوجهه تارة كذا، وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام؛ لأنَّه ينتقل فيه من صيغة إلى صيغة كالانتقال من خطاب حاضر إلى غائب أو من خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماضٍ إلى مستقبل أو من مستقبل

---

(١) المصدر نفسه: ٦/١٧-١٨.

(٢) ينظر: التفسير الكبير: ٢١/١٠٤.

(٣) ينظر: أولى ما قيل: ١/٢٧، ١/٢٠٣، ٣/٢٠، ٤/٢٠، ٤/٦٩-٧٠.

(٤) ينظر: لسان العرب، مادة (لفت).

(٥) ينظر: البديع، ص٥٨، والصناعتين، ص٣٩٢، والعمدة: ٢/٤٦، والمثل السائر: ٢/٤، وتحرير التحبير: ١٢٣، وجوهر الكنز، ص١١٩، وخزانة الأدب: ١/١٣٤.

(٦) ينظر: حلية المحاضرة: ١/١٥٧، والصناعتين، ص٣٩٢، والعمدة: ٢/٤٦، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية: ١/٣٩٥.

إلى ماضٍ»[1]، وهو عنده ثلاثة أقسام:

➢**الأول**: الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة.

➢**الثاني**: الرجوع عن الفعل المستقبل الى فعل الأمر وعن الفعل الماضي الى فعل الأمر.

➢**الثالث**: الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل وعن المستقبل بالماضي.

ووضع السكاكي الالتفات ضمن علم المعاني، فقال فيه: «واعلم أن هذا النوع، أعني نقل الكلام عن الحكاية إلى الغيبة، لا يختص المسند إليه، ولا هذا القدر بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها ينقل كل واحد منهما على الآخر، ويسمى هذا النقل التفاتاً عند علماء المعاني، والعرب يستكثرون منه، ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب على أسلوب، أدخل في القبول عند السامع وأحسن تطرية لنشاطه، وأملاً باستدرار إصغائه، وهم أحرياء بذلك»[2].

والشيخ رشيد الخطيب قد اهتم بهذا الأسلوب في تفسيره، وكان حريصاً على ذكر الأغراض البلاغية التي يخرج إليها هذا الأسلوب. وقد أورد الشيخ أربعة أنواع من الالتفات في القرآن الكريم في تفسيره أولى ما قيل، وهذا خلافٌ لما ذكره الباحث خالد محمد حماش من أن الشيخ أورد ثلاثة أنواع للالتفات[3].

أ – الالتفات من التكلم إلى الغيبة:

ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، قال رشيد الخطيب: «ثم غير

(١) المثل السائر: ٢/٤.

(٢) مفتاح العلوم، ص١٩٩.

(٣) منهج رشيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن الكريم، ص٢٤٨.

الأسلوب من التكلم إلى الغيبة مبالغة في التعظيم»[1].

ولم أجد من المفسرين من قال هذا الرأي.

ب- الالتفات من الغيبة إلى التكلم:

ويأتي هذا النوع لأغراض متعددة ذكرها المفسر، فقد يكون لغرض تربية المهابة نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [النحل: من الآية ٥١]، قال رشيد: «والالتفات من الغيبة إلى التكلم لتربية المهابة»[2].

وذهب البيضاوي إلى غرض الترهيب في الالتفات قائلاً: «نقل من الغيبة إلى التكلم مبالغة في الترهيب وتصريحاً بالمقصود فكأنَّه قال فأنا ذلك الإله الواحد فإياي فارهبون لا غير»[3]. وهذا رأي الزمخشري والرازي والخازن والنسفي والشوكاني[4].

ولم يذكر ابن جزي غرض الالتفات فقال: ««فإياي فارهبون» خرج من الغيبة إلى التكلم؛ لأن الغائب هو المتكلم»[5].

وقد يكون لغرض إظهار الاعتناء، نحو قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٢]، قال رشيد: «ثم التفت

---

(١) أولى ما قيل: ٩٦/٦.

(٢) المصدر نفسه: ١٣٤/٥، وينظر: إرشاد العقل السليم: ١١٩/٥.

(٣) أنوار التنزيل: ٤٠٣/٣.

(٤) ينظر: الكشاف: ٥٧٠/٢، والتفسير الكبير: ٤٠/٢٠، ولباب التأويل: ٩٥/٤، ومدارك التنزيل: ٢٥٩/٢، وفتح القدير: ٢٤٠/٣.

(٥) التسهيل: ٧٤/٢، وينظر: روح المعاني: ١٦٣/١٤، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٢٦٩/٤.

إلى التكلم، إظهاراً لكمال الاعتناء بشأنه»[1].

وقد يكون الالتفات عنده لأكثر من غرض بلاغي، نحو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧]، قال رشيد: «والالتفات من الغيبة إلى التكلم، لإظهار التحقق، أو لإظهار كمال العناية بالفعل»[2].

وقال السمين الحلبي: «قوله«فأخرجنا» هذا التفات من الغيبة إلى التكلم، وإنما كان ذلك؛ لأن المِّنة بالإخراج أبلغ من إنزال الماء»[3]. ولم يذكر البيضاوي وأبو حيان غرض الالتفات[4].

ج- الالتفات من الخطاب إلى الغيبة:

ويأتي عنده أيضاً لأغراض بلاغية متعددة منها ما يأتي لغرض المبالغة في الترهيب نحو قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٤]، قال رشيد: «وعدل عن الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾، للمبالغة في الترهيب»[5].

وذكر الزمخشري الالتفات في الآية لكنه لم يُبين غرضَهُ[6].

---

(١) أولى ما قيل: ١٥٦/٥.

(٢) المصدر نفسه: ١٤٧/٧. وينظر: إرشاد العقل السليم: ١٥٠/٧.

(٣) الدر المصون: ٢٢٦/٩.

(٤) ينظر: أنوار التنزيل: ١٨/٢٦، والبحر المحيط: ٢٩٦/٧.

(٥) أولى ما قيل: ١٩٨/٦-١٩٩.

(٦) ينظر: الكشاف: ٢٢٢/٣.

وقد يكون الالتفات لغرض التعجيب كقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٧٢]، قال رشيد: «... ثم التفت من الخطاب إلى الغيبة لتعجيب السامعين من أمرهم حيث إنَّهم لا يدركون الحق ولا يعتبرون بالحكم، ولا يراعون النعم فقال: «أفبالباطل يؤمنون» وهو الإشراك بالله»[(١)].

ويأتي الالتفات عنده لغرض الإبعاد والتحقير مع التجهيل، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس: ٥٠]، قال رشيد: «وقد أقام مقام الجواب هذه الجملة المصدرة بالإنكار التهديدي ملتفتاً من الخطاب إلى الغيبة للإبعاد والتحقير مع التجهيل فقال: «ماذا يستعجل منه المجرمون»[(٢)].

و لم أجد من المفسرين من ذكر هذا الرأي.

وقد يكون لأكثر من غرض كقوله تعالى: ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦٧-٦٨]، قال رشيد: «ثم لفت الكلام إلى التوبيخ والإنكار لعدد من مضان التهم مضطربة في مسالك البطلان... وعدل الخطاب إلى الغيبة، مبالغة في ذلك، كأنَّه أبعدهم عن ساحة الخطاب لقلة فهمهم فقال: «أفلا يدبروا القول»[(٣)].

و لم أجد من المفسرين من قال بهذا الرأي.

---

(١) أولى ما قيل: ١٤٠/٥، وينظر: إرشاد العقل السليم: ١٢٨/٥.

(٢) أولى ما قيل: ٢٠١/٤-٢٠٢.

(٣) المصدر السابق : ١٥٩/٦.

د- الالتفات من الغيبة إلى الخطاب:

وقد يكون لغرض التهديد نحو قوله تعالى: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۗ﴾ [التوبة: من الآية ٣]، قال رشيد: «ثم التفت من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التهديد...»[(١)].

و لم أجد من المفسرين من ذكر هذا الرأي.

ويأتي عنده لغرض المبالغة في الترهيب كقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦]، قال رشيد: «والالتفات إلى الخطاب للمبالغة في الترهيب»[(٢)].

و لم يذهب أحد من المفسرين إلى هذا القول.

وقد يذكر له أكثر من غرض كقوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢]، قال رشيد: «... ثم عدل عن الغيبة إلى الخطاب زيادة في التقرير ومبالغة في التهديد فقال: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾»[(٣)].

وذهب الآلوسي إلى أنَّ غرض الالتفات هو الإباحة قائلاً: «... وهو الالتفات من الغيبة إلى الخطاب والمقصود الإباحة والإعلام بحصول الأمان من القتل والقتال...»[(٤)].

---

(١) أولى ما قيل: ١٢٠/٤.

(٢) المصدر السابق: ١٣٥/٥.

(٣) المصدر السابق: ١١٩/٤.

(٤) روح المعاني: ٤٣/١٠.

وقال ابن عاشور في تفسير الآية: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ الفاء للتقريع على معنى البراءة، لأنَّها لمّا أمر الله بالأذان بها كانت إعلاماً للمشركين الذين هم المقصود من نقص العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين، فضمير الخطاب في فعل الأمر معلوم منه أنَّهم الموجه إليهم الكلام وذلك التفات. فالتقدير: فاليسيحوا في الأرض ونكتة هذا الالتفات إبلاغ الإنذار إليهم مباشرة»[1].

ولم يذكر القرطبي غرض الالتفات[2].

٥- تأكيد المدح بما يشبه الذم:

وهو من الأساليب الخادعة، إذ يوهم صدر الكلام أن عجزه من قبيل الذم فإذا به من قبيل المدح، فحين نقول: لا عيب في محمد إلا أنَّه أمين، فبدلية كلامك توهم أنك لا ترى فيه عيباً ستذكره بعد الاستثناء، فإذا قلت: إنه أمين، زال الوهم، وتبين القصد في مدحك له على نهج بديع من الكلام، وقد وقف بعض علماء البلاغة عنده، وفصَّلوا الحديث فيه وفي أمثلته تحت عنوان الاستثناء[3].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ [التوبة: من الآية ٧٤]، قال رشيد: «وفي صيغة هذا التعبير: ما يشبه النوع البديعي الذي يسمونه طريقة تعقيب المدح بما يشبه الذم، والغرض منه هنا المبالغة في التشنيع. أي: لم يكن من وجوده ﷺ بينهم إلا أنَّهم نالوا كل خير

(١) التحرير والتنوير: ١٠/١٤.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٨/٩٤، وينظر: زاد المسير: ٣/٣٩٣.

(٣) ينظر: البديع، ص٦٢، وكتاب الصناعتين، ٣٢٤، والعمدة: ٢/٤٨.

وسعادة من الغنى وحسن الحال، فماذا ينقمون عليه...»[1].

وصرح السيوطي بذلك إلا أنَّه لم يذكر الغرض قائلاً: «فإنَّ ظاهر الاستثناء أن ما بعده حق يقتضي الإخراج فلما كان صفة مدح يقتضي الإكرام لا الإخراج كان تأكيداً للمدح بما يشبه الذم»[2]. وهذا ما ذكره الآلوسي وابن عاشور[3].

ولم يصرح الرازي وغيره على لفظ المدح بما يشبه الذم، ولكنه فسر الآية بما يدل على ذلك المعنى قائلاً: «إنَّ قوله: «وما نقموا» إلا أن أعانهم الله ورسوله» تنبيه على إنَّه ليس هناك شيء ينقمون وهذا كقول النابغة:

ولا عَيبَ فِيهم غَيرَ أنَّ سيوفُهم بهنَّ فُلولٌ من قِراعِ الكتائبِ»[4]

وتبعه في ذلك بعض المفسرين[5].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ [الحج: من الآية ٤٠]، قال رشيد: «وهذا البيان أكبر مسوغ للقتال وحافز إليه، نجدة لهم ودفاعاً عن الدين. وهذا الاستثناء من أبلغ الكلام. فقد استثنى من الحكم ما يؤيده ويقرره، ومن الوصف المحسس المفزز

---

(١) أولى ما قيل: ١٥٥/٤.

(٢) الإتقان: ٢٢٥/٣.

(٣) ينظر: روح المعاني: ١٣٩/١٠، والتحرير والتنوير: ١٥٨/١٠.

(٤) التفسير الكبير: ١٠٩/١٦، والبيت في ديوانه، ص٤٤.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٠٧/٨، والبحر المحيط: ٧٤/٥، ولباب التأويل: ١٢٤/٣، والسراج المنير: ٥٠٠/١، وفتح القدير: ٥٥٦/٢، ومعاني القرآن للنحاس: ٢٣٣/٣.

ما يزيده تهييجاً في الشعور. على الطريقة البلاغية المسماة في فن البلاغة: -تعقيب المدح بما يشبه الذم- أو العكس»[1].

ولم يجزم الشوكاني بهذا اللون البديعي في الآية الكريمة قائلاً: «﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ ﴾ يجوز أن بدلاً من الذين يقاتلون أو في محل نصب على المدح أو محل رفع بإضمار مبتدأ»[2].

٦- التورية:

لغةً: مصدر ورّيت الخبر تورية، إذا سترته وأظهرت غيره[3].

وفي الاصطلاح: فقد اتفق البلاغيون على تعريفها، على الرغم من اختلافهم في تسميتها، فقد سُميت بـــ(الإيهام، والتوجيه، والتخيل، والمغالطة)[4].

أما تعريفها فهو: «أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان حقيقيان، أو حقيقة ومجازاً، أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية، فيريد المتكلم المعنى البعيد ويوري عنه بالمعنى القريب فيتوهم السامع أول وهلة، إنه يريد القريب وليس كذلك، ولأجل ذلك سمي هذا النوع إيهاماً»[5].

وإنَّ التورية من الفنون البديعية المهمة التي عنى بها البلاغيون، وأكَّد ذلك

---

(١) أولى ما قيل: ٦/١٣٤-١٣٥.

(٢) فتح القدير: ٣/٦٥٣. وينظر: الإتقان: ٣/٢٢٥.

(٣) لسان العرب، مادة (ورى).

(٤) ينظر: تحرير التحبير، ص٢٦٨، وجوهر الكنز، ص١١١، ومفتاح العلوم، ص٢٠٢، والإيضاح، ص٣٦٤، وخزانة الأدب: ٢/٣٩.

(٥) خزانة الأدب: ٢/٣٩.

ابن حجة؛ إذ قال: «فإنَّ التورية من أغلى فنون الأدب وأعلاها رتبة، وسحرها ينفث في القلوب ويفتح بها أبواب عطف ومحبة...»[1].

وقد أشار رشيد الخطيب إلى هذا اللون البديعي في تفسيره، موضحاً سر التورية وجمالها في موقعها من الكلام في كل موضع، ومنه مما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف: ٢٤]، قال رشيد الخطيب: «يريد السيد العزيز ويوري بالله سبحانه، ويجمع بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي. على إنَّ المعنى الأول أيضاً لا يصدر إلا عن متق لله حق تقاته. فهو مستلزم للمعنى الثاني، يدل عليه بالدلالة الالتزامية. وهذه التورية لا تفهمها المرأة، وإنَّما هي مضمرة في نفس يوسف عليه السلام ولكنها فهمت منه التقريع والتأنيب لها بأنَّها داست كرامة زوجها وحقوقه وحقوق الإحسان إليه وحقوق الثقة بين الزوجين»[2].

ولم أجد أحداً من المفسرين من قال بهذا الرأي فهو من انفرادات رشيد الخطيب.

وقد يتردد احتمال الشيخ للوجه البلاغي في النص القرآني بين التورية وفن بلاغي آخر ليس من البديع على نحو ما نجد عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]، فقد قال رشيد الخطيب: «في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ استعارة أو تورية بديعة عقد بها المشابهة بين الميت والجمل البارك»[3]. ويريد الشيخ هنا

---

(١) المصدر نفسه: ٢/٤٠.

(٢) أولى ما قيل: ٥/١٧-١٨.

(٣) أولى ما قيل: ٣/٨٩.

أنَّ الاستعارة على وجه المجال بتشبيه الكفار بالموتى؛ إذ الكفر ضرب من الموات في الفكر والعقيدة، لانحرافه عن الحق، أو يريد التورية على وجه الخفاء، والتورية هنا عن بلادة التفكير والإحساس لدى الكفار[1].

وذكر أبو السعود معنى الاستعارة[2]، وتبعه ابن عاشور بقوله: «﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ «الموتى» استعارة لمن لا ينتفعون بعقولهم ومواهبهم في أهم الأشياء»[3].

وذهب الآلوسي إلى معنى التشبيه فقال: «شبههم بالأموات بجامع أنَّهم جميعاً لا يفهمون الصواب ولا يعقلون الحق...»[4].

و لم أجد من المفسرين من قال بمعنى التورية عنده.

٧- حسن التعليل:

هو أن يدعي لوصف علَّة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقي أي: بأن ينظر نظراً مشتملاً على لطف ودقة ولا تكون علَّة له في الواقع[5].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨]، قال رشيد: «وقد أردف تحقيق البعث بوجه من حسن التعليل يتضمن الزجر لهم

---

(١) منهج رشيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن الكريم، ص٢٤٩.

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٣/١٣٠.

(٣) التحرير والتنوير: ٦/٨٠.

(٤) روح المعاني: ٢/١٦٣.

(٥) إتمام الدراية لقراء النقاية: ١/١٣٢، وبغية الإيضاح، ص٢٣٧، ومختصر المعاني، ص٢٦٥.

والتبكيت على أحسن الوجوه وأجملها فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٩] [١].

و لم أجد من المفسرين من قال بهذا الرأي.

٨- أسلوب الحكيم:

«هو كل كلام محكم»[٢].

وقد عرفه الجرجاني بقوله: «عبارة عن ذكر الأهم تعريضاً بالمتكلم على تركه الأهم، كما قال الخضر حين سلم عليه موسى عليه السلام إنكاراً لسلامه، لأنَّ السلام لم يكن معهوداً في تلك الأرض: فأنَّى بأرضك السلام؟ وقال موسى عليه السلام في جوابه: أنا موسى، كأنَّه قال: أجبت عن اللائق بك، وهو أن تستفهم عني لإسلامي بأرضك»[٣].

وعُرف أيضاً: «بأنَّه تلقي المخاطب بغير ما يترقب، بحمل كلامه إلى خلاف مراده تنبيهاً على إنَّه الأولى بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيهاً على إنَّه الأولى بحاله، أو المهم له»[٤].

وقد تناول رشيد هذا اللون البديعي في تفسيره في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ [التوبة: من الآية ٦١]، قال رشيد: «أي: غرير سريع الانخداع، وذلك من أكبر عيوب الرؤساء لما يترتب عليه

(١) أولى ما قيل: ١٣٠/٥.

(٢) كتاب الكليات: ١٥٣/١.

(٣) التعريفات، ص٢١.

(٤) خصائص التراكيب ، ص٢٣٦، وبلاغة التراكيب في علم المعاني، ٢٩٩.

من قبول الغش. والظاهر أنَّهم قالوا ذلك تبجحاً بنجاحهم في الاستئذان، حيث أذن لهم بمعاذيرهم الكاذبة. وقد ردَّ الله سبحانه عليهم بالطريقة التي يسميها البلغاء أسلوب الحكيم أو القول بالموجب فقال: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ [التوبة: من الآية ٦١]»[(١)].

ولم أجد من المفسرين من ذهب إلى هذا الرأي.

٩- الإبهام:

لغةً: جاء في اللسان: «الإبهام بالباء الموحدة وهو الكلام الموهم؛ لأنَّ له أكثر من وجه، وإبهام الأمر أن يشتبه فلا يعرف وجهه وقد أبهمه، واستبهم عليهم الأمر: لم يدروا كيف يأتون له، واستبهم عليه الأمر أي: استغلق»[(٢)].

وهو عند البلاغيين: «إيراد الكلام محتملاً لوجهين مختلفين»[(٣)]، وسماه السكاكي التوجيه، وسماه السيوطي كذلك[(٤)].

ومن أمثلته ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، قال رشيد الخطيب: «وهذا الإبهام الصوري التهكمي، بعد أن بين من هو على الهدى ومن هو على الضلال أبلغ من التصريح»[(٥)].

ولم أجد من المفسرين من ذكر هذا الرأي.

---

(١) أولى ما قيل: ١٤٩/٤.

(٢) اللسان، مادة (بهم)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية: ٣٧/١.

(٣) مفتاح العلوم، ص٢٠٢، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية: ٣٧/١.

(٤) معجم المصطلحات البلاغية: ٣٧/١.

(٥) أولى ما قيل: ١٢٩/٧.

١٠- الفاصلة القرآنية:

الفصل لغةً: الفصل من الجسد موضع المفصل، وبين كل فصلين وصلٌ ومثال ذلك: الحاجز بين الشيئين.

والفاصلة: الخرزة التي تفصل بين الخرزتين في النظام، وقد فصل النّظم، وعقد مفصَّل، أي: جعل بين كل لؤلؤتين خرزة. وقوله تعالى: ﴿بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ﴾ بيَّنَّاهُ، وقوله: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ بين كل آيتين فصل، تمضي هذه وتأتي هذه، بين كل آيين مهلة، وقيل مفصّلات: مبينات، وسمي (المُفصَّلُ) لقصر أعداد سوره من الآيات(١).

الفاصلة اصطلاحاً: ويشيع إطلاقها عند أرباب الدراسات القرآنية على آخر كلمة تختتم بها الآية، -مع فارق التنظير- كقافية الشعر وقرينة السجع(٢).

على إنَّ الإجماع منعقد على عدم تسمية الفاصلة قافية كما حكاهُ السيوطي؛ إذ قال: «ولا يجوز تسميتها قوافي إجماعاً؛ لأنَّ الله تعالى لّما سلب عنه اسم الشعر وجب سلب القافية عنه أيضاً؛ لأنَّها منهُ وخاصة في الاصطلاح، وكما يمتنع استعمال القافية يمتنع استعمال الفاصلة في الشعر، لأنَّها صفة لكتاب الله فلا تتعداهُ»(٣). وأما تسمية الفواصل القرآنية أسجاعاً وإطلاق لفظ السجع عليها فإنَّ جمهور العلماء قد منعه، وهو المتعين، وذلك

---

(١) ينظر: لسان العرب، وأساس البلاغة والقاموس المحيط، مادة (فصل).

(٢) ينظر: النكت في ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص٨٩، وإعجاز القرآن للباقلاني، ص٨٣، والبرهان، ص٥٠، والإتقان: ٣/٢٩٠، ومن بلاغة القرآن، ص٧١.

(٣) معترك الأقران: ١/٢٥.

لأنَّ أصل إطلاق السجع في اللغة كان على صوت الحمام إذا سجع أي: هدل على جهة واحدة[1].

فتنزّه القرآن الكريم عن أنْ يستعار لشيء منهُ لفظ هو صوت الطائر، قال الرماني: «الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني، والفواصل بلاغة، والأسجاع عيب، وذلك أنَّ الفواصل تابعة للمعاني، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها»[2]. ثم إنَّ من السجع ما يطلق على مذموم الكلام كسجع الكهان، وأصل المنع في ذلك راجع إلى أنَّ القرآن الكريم هو كلام الله تعالى، وكلامه صفة من صفاته، فلا يجوز وصفه بصفة لم يرد الإذن الشرعي بها؛ لأنَّ ألفاظ أسماء الله تعالى وصفاته وما يتعلق بها توقيفي وليس للاجتهاد البشري فيها مكنة ولا مجال[3].

ومصطلح الفاصلة معروف في العربية، فقد عرفه أعلام العربية كالخليل ابن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ) فأطلقه هو وتلميذه سيبويه (ت١٨٠هـ) على مقاطع القرآن، ثم استقرت دلالته على أواخر الآيات في طبقة الجاحظ (ت٢٥٥هـ) إلى أنْ استوى هذا المصطلح على يد أبي الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ) وتلميذه أبي بكر الباقلاني (ت٤٠٣هـ)[4]. وأصبح الناظر في إعجاز القرآن الكريم والواقف على مظاهر بلاغته يتناول هذا المصطلح ويبرز لطائف البلاغة فيه، وذلك في أغلب البحوث التي تطرَّقت إلى بيان

---

(١) ينظر: لسان العرب، مادة (سجع).

(٢) النكت في إعجاز القرآن، ص٩٧.

(٣) ينظر: ثلاث رسائل، ص٩٠، ومعترك الأقران: ١/٢٥.

(٤) ينظر: الفاصلة في القرآن الكريم، الحسناوي، ص٣٣-٨٧.

القرآن الكريم[1].

والمتأمل في كتاب الله تعالى يلحظ أطَّراد الفاصلة فيه، حتى أصبحت جزءاً من أطَّراد النظام في القرآن كله. فغدت من مظاهر الأحكام في القرآن وهي ركن وطيد من أركان الآية لفظاً ومعنى، يقدر ما هي ركن في المقطع والسورة ومجموع القرآن، وهي من أمارات تيسير الله تعالى كتابه للذكر والحفظ والدرس[2].

وفواصل الآي الكريم تتعلق بمضمون الآية وتتناسب مع سياق نظمها، وهذا من إعجاز الذكر الحكيم؛ يقول الزركشي: «اعلم أنَّ من المواضع التي يتأكد فيها إيقاع المناسبة مقاطع الكلام وأواخره، وإيقاع الشيء فيها بما يشاكله... وفواصل القرآن العظيم لا تخرج عن ذلك؛ ولكن منه ما يظهر، ومنه ما يستخرج بالتأمل للّبيب»[3].

وللفاصلة قيمة في تمكين معنى الآية، مستقرة في قرارها ومطمئنة في موضعها، غير نافرة ولا قلقة ومتعلقاً معناها بالكلام كلّه تعلقاً تاماً؛ إذ لو طرحت اختل المعنى واضطرب الفهم وهذا فيه سرٌّ عظيم[4]. ويشهد لذلك ما حكي عن الأصمعي أنه قال: «كنت أقرأ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾» قرأتُ: والله غفور رحيم [المائدة: ٣٨] وبجنبي أعرابي؛ فقال: كلام من هذا؟ فقلت كلام الله. قال:

---

(١) ينظر: على سبيل التمثيل: الإتقان، إعجاز القرآن للرافعي، والتصوير الفني، ومشاهد القيامة، والإعجاز البياني...

(٢) ينظر: الفاصلة في القرآن، ص١٩٢-١٩٣.

(٣) البرهان، ص٦٥.

(٤) ينظر: المصدر نفسه.

أعد؛ فأعدت، فقال: ليس هذا كلام الله؛ فانتبهت، فقرأت: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقال: أصبت، هذا كلام الله؛ فقلت: أتقرأ القرآن؟ قال: لا. فقلت: من أين علمت؟ فقال: يا هذا؛ عَزَّ؛ فحكم، فقطع؛ ولو غفر فرحم لما قطع[1].

من هذا يتبين في شأن الإعجاز البلاغي أنَّه ما من فاصلة قرآنية إلا وسياق الآية يقتضي لفظها ومعناها، إذ لا يسهل في النظم الكريم أن يقع في مكانها سواها، ليس عدم اهتدائنا إلى سرِّها البياني قدحاً في موقعها وإنما قصور الإدراك فينا[2].

أما مفسرنا رشيد الخطيب فقد وجدناه يذكر في مقدمة تفسيره عدداً من فوائد الفواصل وهي[3]:

- قد يختم -القرآن الكريم- الآية بفاصلة تؤيد مضمون ما قبلها، على مثل هذه الطريقة، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وأمثال ذلك فتكون كالبرهان. والتقرير لمضمون ما يسبقها من المقاصد والأغراض بطريقة التذكير بأسماء الله الحسنى وآثارها الملائمة للسياق.

وقد تأتي الفواصل للحمل على المقررات السابقة والحث على التمسك بها إيجاباً أو سلباً أمراً أو نهياً كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[4]، وكقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) ينظر: الكشكول: ١٤٢/٢.

(٢) ينظر: الإعجاز البياني، ص٢٣٥-٢٥٨.

(٣) ص٢٤-٢٥ من المقدمة.

(٤) تعليق للشيخ رشيد: إذا نظرنا إلى جميع الأوامر والنواهي في القرآن المبين، وإلى جميع النداءات الإلهية للمؤمنين، رأيناها كلها تضع كلمة التقوى أو إحدى=

– وقد يطوي معاني ومقاصد يكتفي بالإشارة إليها بخواتم الآيات والتفكير بأسمائه الحسنى وآثارها.

وقد يأتي بالجملة ينهي بها السياق السابق ويمهد بها للسياق اللاحق معاً، أو يؤيد بها حكماً سابقاً ويمهد بها لحكم لاحق، على طريقة التأييد أيضاً.

وهذا يدل لنا على فهم رشيد للفاصلة القرآنية واهتمامه بذكرها في تفسيره فكان يُبين الفاصلة في أي موضع ترد فيه مُحللاً إياها ذاكر الغرض البلاغي الذي ترد فيه وعلاقتها بالآية التي سبقتها.

ففي قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۛ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، قال رشيد مُبيناً العلاقة بين ما ورد في الآية ونهايتها ما نصه: «أي: فاصبر كما صبر نوح على قومه فإن سنة الله في رسله مع أقوامهم أن تكون العاقبة بالفوز والنجاة للمتقين.

وفي هذه الخاتمة وهذه الفاصلة أشار إلى أنَّ المراد من هذه القصة التأسي بنوح عليه السلام والتثبيت تجاه مشركي قريش، وكذلك القصص التابعة»[1].

وتتكرر في القرآن عند رؤوس الآيات عبارات: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، و﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، و﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فيعلق الشيخ في تفسيره عليها منبهاً على العلاقة الوثيقة بينها وبين المعنى المراد في الآية كما في عبارة: «أفلا تعقلون» في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا

=مشتقاتها تمهيداً أو تذييلاً، لأنها الغاية من كل ذلك والباعث عليه. هامش ص٢٥ من المقدمة ، أول ما قيل.

(١) أولى ما قيل: ٢٤٢/٤.

تَعۡقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦]، فقال: «وفي هذه الفاصلة من لذعة التعنيف والتخجيل، بقدر ما فيها من لفت النظر إلى قوة الدليل»[١].

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، فأجاز رشيد: «أن تكون هذه الفاصلة احتراساً عما يرد من سوء الفهم، تفيد أن إصابتهم بهذه المصيبة لم يكن عن عجز قدرة الله لنصرهم، فهو على كل شيء قدير، ولكنها جاءت على سنن الله الكونية»[٢].

وذكر رشيد الفاصلة القرآنية في مواضع متعددة من تفسيره[٣].

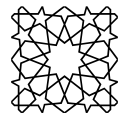

(١) أولى ما قيل : ١٨٨/١.

(٢) المصدر نفسه: ٩١/٢.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١٢٥/١، ١٦١/٤، ٢٣٦/٤، ٩٠/٥، ١٨٠/٥.